زهرة ذابـــــــلة

رفعت الفتاة رأسها بعد إطراقة طويلة وراحت تحدق ببصرها الشارد ، وهى لا تعى شيئاً مما حولها ، وكان السكون المخيم على الحجرة قد أكسبها رهبة وجلالا وكنت أراقب الفتاة ولا أجرؤ على مخاطبتها وفجأة رفعت بصرها إلى ، وما راعنى إلا عيناها وقد اغرورقتا بالدموع ، وكأنها أرادت أن تقول شيئاً فلم أتمالك نفسى ، فقمت إليها وأمسكت بيدها أهدىء من روعها وقلت لها : ماذا يبكيك ياعزيزتى ؟ إنك فتاة جميلة فى زهرة العمر وأمامك المستقبل الزاهر ، وإن أهلك فى سعة من الرزق ، وقد درست ما فيه الكفاية ، وأنت لا تزالين تقرئين وتزودين بالمعلومات فماذا يبكيك ؟ . فرفعت بصرها ثانية وقد جف دمعها وقالت فى لهجة متقطعة ، نعم إن أمامى مستقبلا ولكنه ليس زاهراً ، والذى يبكينى هو ذلك المستقبل الذى تدعى أنه زاهر جميل ، وإنى لأراه مظلماً دامساً ؛ إنك لو كنت فى محلى لما وسعك إلا أن تكون أتعس منى ، ولو عرفت قصتى لعذرتنى ورثيت لحالى . . . وصمتت برهة ، وألقت برأسها بين ذراعيها .

أثر فى نفسى هذا المنظر فجلست أمامها ، ورفعت ، رأسها ، فقلت لها اسمعى ياعزيزتى : إننى أكبرك سناً فاشرحى لى قصتك لعلى أجد لها حلا ترتاحين منه . فقالت . . سوف أشرح لك قصتى وإن كنت لا أعتقد أنك ستجد حلا فاسمع : أنت تعلم أن أختى سوف تتزوج من ابن عمها قريبا ، وأن لهذا أخا أصغر منه ، ومن يوم ولدت كان مقررا أن يتزوجنى وأنا لا أريده ولا أرى فيه ذلك الزوج الذى أنتظره . ذلك الزوج الذى يكون شريكا لحياتى ، وهو سعادتى ، وزهرة مستقبلى ، وكل شىء فى حياتى .

وكنت أثناء كلامها أفكر فى أمرها ، لكن ماذا أستطيع أن أقدم لها من خدمة ، وأنا أعرف أباها شديد التعصب ، لا يعرف شيئاً اسمه الرأى ، ولا يدين بما يسمونه — حرية اختيار الأزواج — وهو من الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى على لسان الكافرين « إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » . فأردت أن أقنعها بالأمر الواقع ، فقلت ماذا يضيرك من ابن عمك ؟ إنه حسن الاخلاق ، مقبول الخلق ، وأنا أعرفه من زمن طويل ، فلم أر فيه ما يدعو إلى النفور منه ، وإن الزواج كفيل بأن يجعل منكما زوجين متحابين . فاعتدلت فى جلستها وقالت : إنى لم أترك وسيلة لاقناع نفسى بقبول الزواج منه ، وأنا أعلم أن ليس فيه عيب ، بل لم أدرك لماذا لا أريده ؟ وكل ما أعرف أننى كلما حضر إلى بيتنا يخيم على حزن عميق ، وكلما حاولت أن أقابله وألاطفه لم أجد إلى ذلك سبيلا . إن الجمال والمال ليسا ما أريده لحياتى الزوجية . إنى أريد التفاهم ، وامتزاج الروح ، أريد أن أتزوج من أرتاح إليه ، ولا أدرى لماذا لا يستشيروننا فى الزواج ؟ كأننا نحن بضاعة رخيصة ولا أدرى من أين جاؤوا بهذه العادة ؟ فلا الدين يأمر بها ، ولا العقل يقبلها . . . يقبلون ويرفضون على هواهم الخاص ، كأنهم هم الذين سيتزوجون . إننى لا أتصور ذلك اليوم الذى سازف فيه إليه ، لكن لا . . . لن أزف إليه ولو اقتضى ذلك هلاكى ، وراحت تذرف من عينيها الدموع .

وقفت أشاهد هذه الزهرة النضرة وهى تذبل كسيرة ، وذلك القلب الذى خلق ليسعد الناس لا يجد لنفسه السعادة ، ومرت فى مخيلتى حوادث رأيتها وسمعتها ، وهى كثيرة ومن هذا النوع . فتلك فتاة جنت ليلة دخلتها ، وهذه كبتت حزنها فنحل جسمها ، وامحى جمالها ، وفارقت الحياة ولم تحقق حلمها ، ذلك الحلم البسيط . زوج ترتاح إليه ؛ وفارقت صاحبتى حزينة مهموماً ، أنا الذى جئت لأنزع الهم والحزن عنها ؛ ومثل هذه المشاكل لا يحلها الكلام ولكن يحلها العمل العادل .

فيا أيها الآباء ارحموا بناتكم فانهن بشر مثلكم ، لهن قلوب وآراء يجب أن تقدروها وتحترموها ؟

يوسف النصف